

الباب الثاني

الرعاية

الفصل الأول : الأمر بالرعاية .

الفصل الثاني : مدة الرعاية .

الفصل الثالث : تكامل الرعاية .

الفصل الأول

الأمر بالرعاية

رعاية النسل أمر فطرى فى النفوس البشرية، لا يشذ عنه إلا من فسدت طبيعته، فالولد قطعة من أبويه، يريان فى رعايته رعاية لهما كرعائتهما لبعض أجزاء الجسم بل أشد، كما قال حطان بن المعلى الأسدى:

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا قمشى على الأرض

وكما قال النبى - ﷺ - عن فاطمة «فاطمة بضعة منى، يرببنى ما رابها، ويؤذبنى ما آذاها»^(١) ولأن فى رعاية الولد بقاء للنوع الإنسانى، لأنه يولد عاجزاً عن رعاية نفسه، فلو ترك لمات وانقرض النوع. بخلاف الحيوانات الأخرى التى يولد ولدها قادراً على الاستقلال بالعيش أغلب الأحيان.

أما من فسدت طبائعهم وقست قلوبهم - كمن قدمنا ألواناً منهم - فلا يكون شذوذهم مانعاً من الحكم بأن الطبيعة البشرية فى استقامتها تندفع تلقائياً إلى رعاية النسل، بل ذلك مراعى فى الحيوانات حين تلد، فهى تعطف على صغارها وتؤثرها على نفسها فى كثير من الأحيان. بل أن حنان الوالدين على أولادهما يظهر مبكراً حين تكون الفراخ خلقاً مستكناً فى البيض تحضنه الوالدة أو الوالد، لشعور كل منهما بأنه قطعة منه، يحافظ عليه كما يحافظ على جزئه، ونرى الأم الحاضنة للبيض تذب عنه من يقرب منه.

وتقوى عاطفة الأمومة بالذات حين يخرج الصغار، وذلك مشاهد لا يحتاج إلى دليل، فالقطة فى الدفاع عن صغارها، واللبؤة فى الدفاع عن أشبالها، بل

(١) رواه البخارى ومسلم عن المسور بن مخرمة.

الدجاجة فى الدفاع عن فراخها . . تظهر فيها عاطفة الأمومة بشكل واضح، يخشى على من يريد بهذه الصغار سوءاً أن يهلك من غضبة الأم، أو يضر ضرراً كبيراً، وإذا كان ذلك فى الحيوان فهو فى الإنسان أوضح . انظر حيلة سليمان عليه السلام فى اقتراح شق ولد تنازعتة امرأتان، حيث تنازلت الأم الحقيقية عنه للأخرى، فحكّم لها به .

وكان من تقدير الإسلام لعاطفة الأمومة فى الحيوان أن أمر النبي ﷺ - برد الفراخ إلى عشيها عندما رأى أمها تحوم حوله، والطائر هو « حمرة » كما رواه أبو داود عن أبي مسعود^(١) .

ونهى النبي ﷺ - عن التفريق بين الأم وولدها، وذلك عند السبي، وفى الحديث « من فرق بين والدته وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة » رواه الترمذى عن أبي أيوب، وقال : حسن غريب، والحاكم وصححه والدارقطنى^(٢) .

وإذا حدث من بعض الآباء تقصير فى الرعاية أو قسوة ملحوظة - أى بعض الأولاد أحياناً، فذلك ناشئ عن عارض لا يغير من جوهر الحقيقة، وهى عطف الآباء على الأبناء، ويعبر بعض العلماء عن هذه الرعاية بقوله : إن رعاية الآباء للأبناء يدفع إليها خلقان أو عاملان، أحدهما لازم للطبع وهو الحذر والإشفاق، وثانيهما مكتسب وهو المحبة .

سأل كسرى غيلان الثقفى حين وفد عليه : أى ولدك أحب إليك؟ فقال : الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يبرأ، والغائب حتى يقدم . فقال كسرى : مالك ولهذا الكلام وهو كلام الحكماء وأنت من قوم حفاة لا حكمة فيهم؟ فما غداؤك؟ قال : خبز البر، قال : هذا العقل من هذا البر، لا من اللبن والتمر^(٣) .

(١) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٨١ .

(٢) المرجع السابق ج ٢، ص ٢٣١ .

(٣) أسد الغابة - ترجمة غيلان بن سلمة .

ومع هذا الشعور الطبيعي برعاية النش حثت الأديان السماوية عليها،
تأكيداً لهذا الوازع الطبيعي، وتنبئها لذوى الطبائع الفاسدة إلى واجبهـم نحو
أولادهم، يقول محمد بن علي: إن الله رضى الآباء للأبناء فحذرهم فتنـتـهم ولم
يوصهم بهم؛ ولم يرض الأبناء للآباء فأوصاهم بهم، وإن شر الأبناء من دعاه
التقصير إلى العقوق، وشر الآباء من دعاه البر إلى الإفراط^(١). وقريب من هذا
الكلام ورد عن زيد بن علي بن الحسين لابنه يحيى^(٢).

وقد أملى منطق الفطرة على أعرابي أن يقول لأبيه عندما سبه وذكر له
حقه: يا أبت إن عظم حـقك على لا يذهب بصغير حقي عليك؛ وإن الذي تـمـت
به إلى أمت به إليك؛ ولست أزعم أنهما سواء، ولكن لا يحل الاعتداء^(٣).

وكان للإسلام نصيب كبير في الحث على هذه الرعاية، من ذلك قوله تعالى
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾
[التحریم: ٦] فهو أمر للأولياء برعاية أهلهم - أزواجهم وأولادهم - وذلك
بما يستلزمه إلى الخسر حتى لا يقعوا في النار بمعصيتهم. وقوله ﴿ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ
بِأَسَدَةٍ وَخَضِرٍ عَلَيْنَا ﴾ [مـة: ١٣٢] وهو أمر للنبي - ﷺ - فهو للمسلمين
مما لم يعد المخلص. وليلتقى المعنى مع معنى الآية الأولى. وجاء في الحديث
كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، والأمير راع ومستول عن رعيته، والرجل
راع في أهل بيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم
مسئول عن رعيته^(٤). وفي الحديث أيضاً «ولأهلك عليك حقاً»^(٥) وذلك في
قصة سلمان وأبي الدرداء، وجاء فيه أيضاً «إن لولدك عليك حقاً»^(٦). وروى
أحمد عن عائشة أن أسامة بن زيد عشر بعتبة الباب فدمى، فجعل النبي - ﷺ -

(١) أدب الدنيا والدين ص ١٤٥. (٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٧ ص ٩٢.

(٣) محاضرات الأدباء للأصبهاني ج ١ ص ٢٠٥ والمستطرف لأبوشهبه ج ٢، ص ٩.

(٤) رواد البخاري ومسلم عن ابن عمر. (٥) رواد البخاري ومسلم عن أبي جحيفة.

(٦) رواد مسلم عن عبد الله بن عمرو.

يَمَصُّهُ ويقول « لو كان أسامة جارية لخليتها ولكسوتها حتى انفقها » وإسناده صحيح^(١)، ومعنى « أنفقها » أجعلها رائجة يكثر خاطبوها، وسيجيء حديث « مروا أولادكم بالصلاة... » وسأل رجل النبي - ﷺ - : « مَنْ أَبْر؟ » قال (بر والديك) فقال : ليس لى والدان، فقال « بر ولدك، كما أن لوالديك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حق » ذكره أبو عمر التوقاني فى كتاب معاشره الأهلين، من حديث عثمان بن عفان دون قوله « فكما أن لوالديك... » وهذه القطعة رواها الطبرانى عن ابن عمر. قال الدارقطنى : « إن الأصح وقفه على ابن عمر^(٢) إلى غير ذلك من النصوص التى وردت خاصة بنوع معين من الرعاية كالنفقة والتعليم والإرضاع والحضانة والتسوية والتسمية وغيرها.

وإلى جانب أمر الإسلام بهذه الرعاية رغب فيها وجعل فضلها كبيراً وثوابها عظيماً، من ذلك قول النبي - ﷺ - : « أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته فى سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله » رواه مسلم عن ثوبان بن بجدد مولى النبي - ﷺ - قال أبو قلابة راوى الحديث : وبدأ بالعيال، ثم قال أبو قلابة : وأى رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم؟ وروى مسلم أيضاً عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك » قال ابن المبارك المتوفى سنة ١٨١هـ، وهو مع إخوانه فى الغزو، تعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه؟ قالوا : ما نعلم ذلك، قال : أنا أعلم، فما هو؟ قال : رجل متعفف ذو عائلة قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياماً منكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه، فعمله أفضل مما نحن فيه^(٣) ولعل هذا فى الجهاد المندوب، وفيما لو لم يكن للرجل من يعول أولاده ويرعاهم

(٢) الإحياء ج ٢، ص ١٩٣.

(١) الإحياء ج ٢، ص ١٩٤.

(٣) الإحياء : ج ص ٢٩.

غيره، قياساً على إذن النبي - ﷺ - للشباب أن يتخلف عن الغزو لرعاية أبيه، وسيأتي في الجزء الخاص ببر الوالدين.

وقد حذر الإسلام من إهمال رعاية الأولاد، لأن ذلك يؤدي إلى أخطاء تعود على النسل مادياً وأدبياً، وبالتالي على الآباء من العقوق والهموم وغيرها، وعلى الأسرة من التفكك والانحلال، وكذلك على المجتمع والوطن الذي كان يود أن يستقبلهم وقد أعدوا إعداداً صالحاً للنهوض بتبعات الإصلاح والتقدم، يقول النبي - ﷺ - : «إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته» (١) ويقول «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» رواه أبو داود وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص وصححه، ورواه مسلم بلفظ «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته». ويقول شوقي:

ليس اليتيم من انتهى أبواه من هذى الحياة وخلفاه ذليلاً
إن اليتيم هو الذي تُلْفَى له أمّا تخلت أو أباً مشغولاً

ومن هنا أوجب الإسلام قيام وصى على الصغير حتى يبلغ أشده، وكذلك الحجر على السفه حتى لا يضيع ماله ويفسد، قال تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ * وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴿ [النساء: ٥، ٦]. ورد أن النبي - ﷺ - قال: «رحم الله والدأ أعان ولده على بره» أى لم يحمله على العقوق بسوء عمله. رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب عن علي بن أبي طالب وابن عمر بسند ضعيف، ورواه التوقاني من طريق الشعبي مرسلًا (٢).

* * *

(١) رواه ابن حبان في صحيحه عن أنس بن مالك. (٢) الإحياء ج ٢، ص ١٩٣.

الفصل الثاني

مدة الرعاية

إن رعاية النسل لا يقتصر التكليف بها على فترة وجوده الحسى المستقل بعيداً عن بطن أمه، بل تمتد إلى الوراء والوراء البعيد، فهى لازمة مدة وجود الجنين حملاً فى بطن أمه، بل قبل أن تحمل به حينما كان مجرد فكرة فى ذهن أبويه عند الإقدام على الزواج، فقد أمر الإسلام بحسن اختيار الزوجين، وتقدير الدين والأخلاق فى كل من الزوج والزوجة.

ومما يدل على أثر الاختيار فى الذرية قول الله تعالى فى شأن الغلامين اللذين حفظ لهما الكنز تحت الجدار الذى أصلحه الخضر ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]. وقد قال المفسرون: إن الأب كان هو الجد السابع، وجاء فى الحديث الذى رواه أحمد عن وهب: أن الرب قال فى بعض ما يقول لبنى إسرائيل «إنى إذا أطعتُ رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتى نهاية، وإذا عُصيتُ غضبت، وإذا غضبت لعنت، ولعنتى تبلغ السابع من الولد». وفى كتاب «حسن الأسوة» حديث رواه ابن مردويه عن جابر عن النبى - ﷺ - : «إن الله عز وجل يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده وأهل دويرته وأهل دويرات حوله، فما يزالون فى حفظ الله ما دام فيهم» وعن ابن عباس مثله. وفى المطالب العالية لابن حجر^(١) من كلام محمد بن المنكدر، أخرجه الحميدى فى مسنده.

وفى القول المأثور^(٢): تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس. أى أن صفات

(١) ج ٣، ص ١٧٧.

(٢) روى على أنه حديث وسبق فى بحث اختيار الزوجين ج ١ ص ٢٠٧.

الوالدين تورث وتظهر في الأولاد. وقد قال أبو الأسود الدؤلى لبنيه: يابنى قد أحسنت إليكم صغارا وكبارا وقبل أن تولدوا، فقالوا: وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد؟ قال: اخترت لكم أمأ لا تسبون بها. وقال الرياشي «٢٥٧هـ»:

فأول إحسانى إليكم تخيرى لماجدة الأعراق باد عفافها

وسياتى فى التسمية أن سوء اختيار الزوج لزوجته كان سبباً فى عقوق الولد لأبيه.

وإذا تم الزواج وحدث الحمل وجبت العناية بالحامل نفسياً وطبيعياً، لأن أحوالها تؤثر على الجنين، على ما سياتى بيانه. ومنع الإسلام إقامة الحد على أمه ما دام جنيناً، كما حدث مع الجهنية التى وجب عليها حد الزنى بالرجم، فأخره النبى - ﷺ - حتى وضعت الحمل، بل حتى فطم عن الرضاع كما رواه مسلم.

وكذلك حفظ للجنين حقه فى الميراث إذا مات مورثه قبل أن يولد، وأوجب الدية بالجناية عليه كما سياتى. وبعد ولادة الولد تكثر حقوقه ومظاهر رعايته التى سنفصلها فى الأبواب والفصول الآتية. وكذلك إذا مات الولد لأحقتة الرعاية أو استمرت الصلة بينه وبين أبويه، وذلك بوجوب ما يجب لكل ميت، وما يلزم حيائه من الصبر وغيره. ففى الحديث «أطفال المؤمنين فى جبل فى الجنة يكفلهم ابراهيم وسارة حتى يردوهم إلى آباءهم يوم القيامة»^(١) وحديث «من مات له أولاد لم يبلغوا الحنث...» وقد تقدم. وحديث أم سليم مع أبى طلحة عندما مات ولده ولم تخبره حتى قضيا ليلة طيبة، ودعا لهما النبى - ﷺ - فولدت وسماه النبى عبد الله وحنكه، وجاء فى رواية البخارى: قال ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن، يعنى من أولاد عبد الله المولود^(٢).

وقد نبه العلماء إلى المبادرة بالتربية منذ الصغر، خصوصاً من الناحية

(١) احمد وإسحاق عن أبى هريرة وهو صحيح.

(٢) رياض الصالحين - باب الصبر.

العقدية والحلقية، لأن نفوس الأولاد إذ ذاك أعظم ما تكون تهيؤاً لقبول الأدب وتقويم الطبع. ومن قولهم في ذلك: اطبع الطين ما كان رطباً، واغمر العود ما كان لدناً. ومن أدب ولده صغيراً سرّ به كبيراً^(١). وقال ابن عباس: من لم يجلس في الصغر حيث يكره لم يجلس في الكبر حيث يحب، وهو في معنى قول الشاعر - وهو المألوف كما في عيون الأخبار^(٢):

إذا المرء أعتته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه عسير
وقال صالح بن عبد القدوس:

وإن من أدبته في الصبا كالعود يُسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقاً نضراً بعد الذي أبصرت من يأسه
والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد له جهله كذي الصبا عاد إلى بأسه
ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

ومياتي تعويد الصحابة أولادهم على الصيام منذ السغير. وإنهاؤهم عن الطعام بكرات الصوف، وكذلك حديث الأمر بالصلاة لسبع سنين.

* * *

(٢) ج ١ ص ٣٤٧.

(١) مجمع الفريدي، ج ١ ص ١٩٧.

الفصل الثالث

تكامل الرعاية

مرَّ في الكلام عن فلسفة الإسلام في التربية الإشارة إلى أن رعاية الأولاد لابد أن تكون رعاية شاملة للنواحي المادية والأدبية والجسمية والعقلية والخلقية. لأن كل هذه المظاهر هي التي تكون شخصية الطفل، وكل منها يترك بصمته عليها إن قوية وإن ضعيفة، ومن أهم ما يجب العناية به الناحية الروحية والخلقية، فهي ثمرة التربية الجسمية والعقلية، والإنسان يقاس بكمالاته النفسية والأدبية قبل الكمالات الجسمية والمادية التي هي موجودة في كثير من الحيوانات ومن الأشخاص الذين ينبذهم المجتمع، ولا يقدرهم الدين. يقول أبو الفتح البستي (٤٠٠هـ):

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان^(١)
ويقول شاعر آخر:
ما وهب الله لامرئ هبة أفضل من عقله ومن أدبه
هما حياة الفتى فإن فقد فأن فقد الحياة أليق به

جاء في مذكرات الأخلاق^(٢): إن التربية الخلقية والروحية شرط أساسي من شروط التكيف النفسي، لأنها تجنب الفرد الوقوع في الخطأ، وتخفف عنه إلى حد كبير من حدة التوتر الذي يسببه تصارع الدوافع والاتجاهات. والأمن النفسي

(١) قيل أنها للأمير الراضى بالله - حياة الحيوان للدميري - ثعبان.

(٢) جاد المولى وسلمان.

ملاحظ عند ما يسلك الإنسان سلوكاً معيناً مشتقاً من قوانين الأخلاق التي تستند خاصة إلى الدين، لأن السلوك على هذا الأساس يجد له مرجعاً يرجع إليه عند الانطلاق إلى العمل وعند عملية التقويم للسلوك. ولما كانت هذه القيم ثابتة أصلية كان شعور النفس بالراحة والطمأنينة بالغاً أقصاه. اهـ.

لقد بعث المنصور إلى من في السجن من بنى أمية يقول لهم: ما أشد ما مر بكم في هذا الحبس؟ فقالوا: ما فقدناه من تأديب أولادنا. وقد اتفقت العقول من قديم الزمان على أهمية الرعاية الأدبية، وجاءت الأديان مقررّة لهذه الحقيقة، يقول لقمان: ضرب الوالد للولد كمطر السماء للزرع، ويقول بزرّ جَمَهْر: ما ورث الآباء للأبناء خيراً من الأدب، لأن بالأدب يكسبون المال وبالجهل يُتلفونه (١).

وكان للإسلام القدح المعلى في التوصية بتربية الأولاد، وقد مرت بك نصوص كثيرة في الرعاية العامة من الناحيتين المادية والأدبية، وفي الرعاية الأدبية خاصة يقول النبي - ﷺ - : « ما نحل والد والداً من نحل أفضل من أدب حسن » رواه الترمذى عن أيوب بن موسى عن أبيه عن جده، وقال: حديث غريب، وقال المنذرى: إنه مرسل (٢) ويقول أيضاً « لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع » رواه الترمذى عن جابر بن سمرة وقال: حسن غريب (٣) ويقول « الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » رواه ابن ماجه عن ابن عباس، ورواه عن أنس بلفظ « أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » وهو ضعيف. وفي البيهقى من حديث مسلم بن ابراهيم عن شداد بن سعيد الجريرى عن أبى سعيد وابن عباس عن النبي - ﷺ - : « من ولد له ولد فليحسن اسمه وأدبه، فإذا بلغ فليزوجه، فإن بلغ ولم يزوجه فأصاب إثمًا فإثمه على أبيه » (٤) وستأتى أحاديث أخرى في أنواع خاصة من الرعاية الأدبية. يقول على كرم الله وجهه: أدبهم وعلموهم.

(٢، ٣) الترغيب والترهيب ج ٣، ص ٢٠.

(١) العقد الفريد ج ١، ص ١٩٢.

(٤) ذكره ابن القيم في تحفه الودود.

وفى كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى ومحاضرات الأدباء للأصبهاني^(١) إن أبا مریم مؤدب الأمين والمأمون ولدى الرشيد ضرب الأمين فخذش ذراعه، فدعاه أبوه إلى الطعام، فتعمد أن يحسر الأمين عن ذراعه فرآه الرشيد، فسأله، فقال: ضربنى أبو مریم، فبعث الرشيد إليه وسأله عن ضرب الأمين: ما بال محمد يشكوك؟ فقال: غلبنى خبثاً وعرامة، فقال الرشيد: اقتله، فلأن يموت خير من أن يموق. والموق هو الحمق والغباء، والعرام والعرامة القوة والشراسة، ورجل عارم أى شرير خبيث، وسيأتى مزيد لذلك عند الكلام على مادة التربية.

* * *

(١) ج ١ ص ٣٠.